الرسالة

(٢ كورنثوس ٦:١٦–١٨؛ ١:٧)

يا إخوةُ أنتمُ هيكَلُ اللهِ الحيِّ كما قالَ اللهُ إنّي سأسكُنُ فيهم وأسيرُ فيما بينَهم وأكونُ لهم إلهًا وهم يكونونَ لي شعبًا* فلذلكَ اخرُجوا من بينهم واعتزلوا يقولُ الربُّ ولا تَمَسّوا نَجِسًا* فأقبلَكم وأكونَ لكم أبًا وتكونونَ أنتم لي بنينَ وبناتٍ يقولُ الربُّ القدير* وإذ لنا هذه المواعِدُ أيُّها الأحبَّاء فلنُطهِّرْ أنفُسَنا من كلّ أدناسِ الجسدِ والروحِ ونكمِلِ القداسةَ بمخافةَ الله.

الإنجيل

(متى ١٥: ٢١–٢٨)

في ذلك الزمان خرجَ يسوعُ إلى نواحي صورَ وصيدا وإذا بامرأةٍ كنعانيَّةٍ قد خرجتْ من تلك التُخومِ وصرختْ إليهِ قائلةً إرحمني يا ربُّ يا ابنَ داود فإنَّ ابنتي بها شيطانٌ يعذِّبُها جدًّا* فلم يُجِبْها بكلمةٍ. فدنا تلاميذُه وسألوهُ قائلين إصرِفْها فإنَّها تصيحُ في إثْرِنا* فأجابَ وقالَ لهم لم أُرْسَلْ إلاَّ إلى

المرأة الكنعانية

في الأحد الذي يسبق موسم التريودي نقرأ مقطعًا من إنجيل متى يحكي قصة لقاء بين الرب يسوع وامرأة وثنية جاءت تسترحمه من أجل ابنة لها فيها شيطان. يقول الإنجيلي إن يسوع خرج من «هناك»، من أرض جنّيسارت على شاطىء طبرية، إلى «نواحي صور وصيدا»، والمدينتان آنذاك سكانهما فينيقيون وثنيون. خرج من بين شعب الله إلى شعب لا يعرف الله، لا سيما وأننا نقرأ في المقطع السابق كيف وبّخ يسوع الفريسيين وقادة إسرائيل على استغنائهم عن وصايا الله واكتفائهم بسطحيات الشرائع (متى ١٥:١–٢٠). الإنسان الذي يكتفي في علاقته بالله بسطحيات الشرائع، وهي الأسهل إتمامًا، يكون مرائيًا يكرّم الله بشفتيه دون القلب، عبادته باطلة ويؤثر تعاليم الناس على وصايا الله، كما قال الرب يسوع (متى ١٥:٧–٩). يسوع يخرج ليبحث عن أولاده بين الأمم، معلنًا الطابع الكوني لرسالته.

إمرأة وثنية تخرج إلى يسوع صارخة إرحمني يا ابن داود، محققة قول صاحب المزامير «شعب لم أعرفه يتعبّد لي» (مز ١٨:٤٣). هذه المرأة لم يُعطَ لها أن تسمع كلمة الله ولا بلغها ناموسه وأنبياؤه، ولكنها بالقليل الذي سمعته عن يسوع، وتحت وطأة الشيطان القابض على ابنتها، خرجت من أرض كفرها تسترحم الرب بالصراخ. أهل الناموس والنبوءات يحاجُّون الرب ويرفضونه، وغريبة الجنس ترتمي عند قدميه وتعترف به مخلّصًا. النفس البشرية لا تخلُص إلا متى وَعَت «جنونها»، الحاصل بفعل ابتعادها عن الله، وتركت أرض كفرها وعادات أهوائها، وارتمت عند قدمي السيد نائحة بانسحاق. الكنعانية خرجت من أرض شعبها لتطلب يسوع، وهو لم يكن عنها بعيدًا.

لكن لماذا «لم يجبها بكلمة؟» واضح مما سوف يلي أن الرب لم يهملها، ولكن له في صمته تدبير. فهو الذي خصّ بني إسرائيل بالمواعد وتجسّد في وسطهم وأرادهم خميرة مقدّسة لتعميم بشارته، ومنهم كان التلاميذ الذين ألهبوا الأرض بإنجيل الخلاص. يسوع يتأخر في الإجابة لأنه أمين لمواعيده لشعبه، ولم يفتح الباب للأمم إلا بعدما رفضته خاصته. يصمت لأنه

العدد ٢٠٠٣/٦
الأحد ٩ شباط
أحد الكنعانية
وداع عيد دخول ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل
تذكار الشهيد نيكيفوروس
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الحادي عشر

يريد من تلاميذه أن يتحرّكوا، حتى إذا ما أثارهم صراخ المرأة يكشف لهم رغبته في أن يهتموا هم أيضًا بالعالم الوثني وخلاصه. غير أن السيد الذي ظهر صامتًا أو غير آبه، كان في الحقيقة ناظرًا قلب الكنعانية وإيمانها، وكان يريد أن يزكّي إتّضاعها وحرارة طلبتها أمام الجميع. هنا يرى الآباء أهمية الصبر والاتضاع في الصلاة. المؤمن المصلّي يصرخ ويقرع ولا يملّ، لأنه يعرف أن ربّه سامع، ويعرف أن الرحمة تأتيه وإن طال انتظارها. المصلّي الحقيقي يطلب الرحمة منسحقًا لا كالمتكابرين، لأنه يؤمن أن «القلب الخاشع والمتواضع لا يرذله الله» (مز ٥٠:١٧).

«لم أرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة». في الحوار مع نيقوديموس (يو ٣:١٦) يقول يسوع «هكذا أحب الله العالم (أي كل العالم) حتى بذل ابنه الوحيد ...». كيف يقول السيد إذًا إنه لم يُرسل إلا لشعب دون آخر؟ عن هذا يقول المفسرون إن السيد أراد اولاً التأكيد على أمانته لشعبه بالرغم من نكران إسرائيل وقساوته. ومن ثم التمهيد لتعليم هو بلا ريب القصد من هذا المقطع الإنجيلي. هذا التعليم يكمن تحديدًا في إيمان المرأة الوثنية التي استطاعت أن تنتزع من السيد شفاءً، رغم نيّته ألا يصنع آيات في أرض لا خراف فيها من بيت إسرائيل. المهم إذًا هو قوة الإيمان التي تغتصب ملكوت الله (راجع مَثَل القاضي الظالم، لو ١٨:١-٨). صاحب المزامير سبق وتكلم عن شعب غريب يتعبد لله، و«من سماع الأذن يسمعون لي» (مز ١٨: ٤٣-٤٤) أي أولئك الذين آمنوا لمجرد سماعهم يسوع، على عكس إسرائيل الذي رأى يسوع وعاين آياته، وبالرغم من ذلك رفضه وآثر قتله. كثيرون من أهل بيت الله، وفي أيامنا هذه، يضلّون لأنهم يرومون احتكار الله، فينسبون الخلاص إلى برّهم المزعوم لا إلى صلاح الله، ويطوّعون الإنجيل على قياس أهوائهم بدلاً من أن يطيعوه.

«ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب». هل يُعقل أن يفتتح السيد جوابه لهذه المسكينة بمثل هذا التحقير؟ نحن نعرف أن السيد لا يحتقر خليقته، ونعرف أيضًا أن الآتي لخلاص الجنس البشري بمجمله، لم يميز يومًا بين مخلوق وآخر في الخلاص. غير أن يسوع يستعير صورة التمييز الإجتماعي المألوفة في زمانه ليعود فيكسرها بنفسه. يسوع يردد هنا ما كان يقوله اليهود، ليعود فيمجِّد مَنْ صنَّفهم اليهود كلابًا، بحيث أنهم صاروا أعظم إيمانًا من البنين أنفسهم. هذا بالإضافة إلى أن الأمم بانغماسهم في عبادة الأوثان فاقوا بشرورهم ما قد تفعله الحيوانات والكواسر. لذا، فالآية التي سوف تعطى للمرأة المتوسلة هي بسبب إيمانها الشخصي، ولأنها خرجت من «شعبها وبيت أبيها»، أي من تحت نواميس الخطيئة وسلطان أبي الخطيئة. ثمة تعليم بالغ في هذا الموقف يطاول، عبر الكنعانية، كل أهل أرضها الذين يشتهي الله خلاصهم أيضًا. هذا بالإضافة إلى أن السيد، العارف بما في قلب المرأة، يستحث اتضاعها البالغ الذي فاقت به أبناء الملكوت لكي يعطيها ما رجت، وفوقه التكريم، ولتصبح صورة ومثالاً في الإيمان يحتذى. ألم يدعُ السيد المؤمنين إلى أن يتعلّموا من أبناء هذا العالم؟ (راجع لو ١٦:١-٨). نشير هنا إلى أن كلمة «كلاب» في لغة النص الأصلي لا تشير إلى جنس الكلاب عمومًا بل إلى الكلاب الصغيرة التي تتربى في البيوت، ويلعب معها البنون.

«نعم يا سيد، والكلاب أيضًا تأكل الخرافِ الضالَّةِ من بيتِ إسرائيل* فأتتْ وسجدتْ لهُ قائلةً أَغِثْني يا ربُّ* فأجابَ قائلاً ليس حسنًا أن يُؤخَذَ خبزُ البنينَ ويُلقى للكلاب* فقالتْ نعم يا ربُّ فإنَّ الكلابَ أيضًا تأكُلُ مِنَ الفُتاتِ الذي يسقطُ من موائدِ أربابِها* حينئذٍ أجابَ يسوعُ وقال لها يا امرأةُ عظيمٌ إيمانُكِ فليكُنْ لكِ كما أردتِ* فشُفيتِ ابنتُها من تلك الساعة.

تأمل

«في ذلك الزمان خرج يسوع إلى نواحي صور وصيدا وإذا بامرأةٌ كنعانيّة قد خرجت من تلك التُخوم وصرخت إليه قائلة إرحمني يا رب يا ابن داود فإن ابنتي بها شيطان يعذبها جدًا» (متى ١٥: ٢١ – ٢٢).

في الواقع لم تخرج الكنعانيةُ فقط من حدود تلك المنطقة الوثنية بل صعدت أيضًا من الأودية كزنبق شريف متفوّهة بكلمات تنضح برائحة الروح القدس. ان كان الواحد لا يستطيع أن يقول: يسوع رب إلاّ بالروح القدس (١كور ١٢:٣)، من يُنكرُ ان لسانَ الكنعانية كان يحرّكه الروح الإلهي، طالما كان يدعو بابن داود نفسه وبالربّ متوسّلاً منه الرحمة ومقتنعًا أن له السيادة على الشياطين؟ إن كان الإيمان يتولّد بالسماع (رو ١٠: ١٧)

حسب قول الرسول بولس «فقد خرج صيت عنه إلى كل موضع في الكورة المحيطة» (لو ٤:٣٧)، لقد وجد المسيح الكنعانية إناءً حسن الصدى فبوّق فيه بأشدّ الصوت. لأن هذه ما إن آمنت حتى ركضت بحرارة وتوسلت جهارًا وكرزت في الوقت نفسه صارخة من بعيد: «إرحمني يا ربُّ يا ابنَ داود فإن ابنتي بها شيطان يعذبها جدًا».هي لا تشعر بالمأساة، أمّا أنا فأحسّ بالألم وتحترق أحشائي فأطلب رحمتك، أنت ابن داود حسب البشرية كونك تنحدر من صلبه، وفي الوقت نفسه أنت ربّ الكل كونك إلهًا قبل الدهور، وبسماح منك يعذب الشيطانُ ابنتي. إن شئت الآن أن تُميل إليّ أذنيك برحمتك، يبتعد ذاك اللعينُ للحال.

لم يجب الرب بكلمة مريدًا أن يُبرز بالاكثر إيمانَها وفضيلتها لكي يُظهر انه بعدلٍ اتجه إلى الأمم، لا لأن اليهود جحدوه فحسب، بل لأن الأمم أيضًا قد جذبوه عن طريق إيمانهم.

لكن عندما قال له التلاميذ «اصرفها فإنها تصيح في إثرنا»، قال لهم: «لم أُرسل إلاّ إلى الخراف الضالة من بيت إسرائيل» لأنه عندما رآهم فقدوا التقوى الأبوية والفضيلة لم يشأ أن يتركهم يهلكون وذلك بسبب آبائهم الذين عاشوا في التقوى. لذلك عندما أرسله الآب جاء إليهم أوّلاً.

من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها». بهذا القول يصل يسوع إلى مبتغاه. فالمرأة ما ثارت ولا غضبت لأنها دُعيت كلبًا، بل قالت «نعم يا سيد». هذه هي صورة المؤمن الذي لا يثور على الله إن تمهّل الله في استجابته، ولا يمل فيبتعد ويضلّ. النفس البشرية لا تكون صادقة في توبتها إلا متى أقرّت بـ«حيوانيتها» الحاصلة بفعل الخطيئة، وهذا جل ما يبتغيه الرب. متى أقرّ الإنسان بحيوانية الخطيئة المستشرية فيه يتقزز منها، ويكون ابتعاده عنها بلا رجوع. قد يكون ما يستدر الرحمة من الله ليس ترداد الطلبات وحسب، بل على الأخص عمق التوبة وصدقية الإيمان. بقولها «نعم يا سيد» لا تحتال الكنعانية لتنال مبتغاها بل تكتفي حقيقة بالفتات. ذلك أن التائب الحقيقي لا يترأس الموائد ولا يدّعي لنفسه رفيع المكانات بل يعلم أن فتات مائدة أبيه السماوي تكفيه للخلاص، على مثال الإبن الشاطر الذي عندما عاين بؤس حاله وشقائه، عاد إلى أبيه، مكتفيًا بمكانة الأجير (لو ١٥:١٧–١٩).

موقف المرأة الكنعانية صورة للكنيسة التي تركت أرض الأمم وانتزعت رحمة الرب بالإيمان، فآل إليها الملكوت بعدما تنكّر له أبناؤه الأولون. من كانت لهم أولى المواعد يضلّون،فيؤول الملكوت إلى المبعَدين والمهمّشين ... إذ إن بيت الرب لا بد أن يمتلىء (راجع متى ٢٢:١–١٤).

جهنم

الصورة الكتابية لجهنَّم مأخوذة من هذا الممر الضيق والعميق جنوبي شرقي أورشليم المسمَّى «وادي ابن هنّوم» حيث كان العبرانيون الخائنون لله يقدّمون الأطفال ذبائح لآلهة البعل الوثنية (٢ أخبار الأيام ٢٨:٣، ٣٣:٦؛ ارميا ٧:٣١–٣٢) وقد اسماه الرب على لسان ارميا بـ«وادي القتل» (ار ١٩:٢–٦). الملك يوشيا بعدما «قطع عهدًا أمام الرب للذهاب وراء الرب ولحفظ وصاياه وشهاداته وفرائضه بكل القلب والنفس ... نجَّس (بعظام الأموات وبكسر التماثيل) توفة التي في وادي ابن هنّوم (الجزء الشرقي منه) لكي لا يُعبِّر أحد ابنه أو ابنته في النار لمولك (احد آلهة الوثنية) ...» (٢ ملوك ٢٣:٣و١٠). كان هذا لكي ينزع صفة المكان المقدّس عن الوادي، فصار الوادي لاحقًا مِكبًّا للنفايات، وعُرف بمكب الركام، مكان الدمار بالنار، مكان الهلاك حسب التقليد العبراني. من هنا ولدت الكلمة اليونانية «جهنم» المأخوذة من الأسم العبراني لهذا الوادي (متى ٥:٢٢،١٠:٢٣،٢٨:١٥)، والمستعملة في العهد الجديد كمكان للعقاب الأبدي حيث البكاء وصرير الاسنان، وحيث النار الأبدية والعقاب الدائم للخطأة (متى ٢٥:٤٦، مر ٦:٤٣–٤٤، و ٢ بط ٢:٤).

يُعتبر هذا الوادي صورة معبِّرة عن جهنم بسبب ربطه مع صورة المكان الذي سوف تُرمى فيه جثث المقتولين من ابناء يهوذا على يد الغزاة، كما قال الرب على لسان ارميا النبي (٧:٣٠–٣٤). الربط بين الوادي والطقوس البغيضة التي كانت تجري فيه، وصورة رمي الجثث دون طقوس دينية وصيرورة هذه الجثث طعامًا للطيور البرية ولوحوش الأرض، كلها تشير إلى ان الميت هناك واقع تحت لعنة الله. يذكر النبي اشعياء مكانًا غير محدد قرب أورشليم حيث جثث أعداء الله واقعة تحت لعنة الله الذاتية: «قال الرب: ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوا عليَّ لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تُطفأ، ويكونون رذالة لكل ذي جسد» (أش٦٦:٢٤). وصف الرب يسوع

لجهنَّم في انجيل مرقس (٩:٤٧-٤٨) يردد هذه الصور النبوية.

إضافة إلى المناظر الكريهة التي قد يتصورها الإنسان في ما ورد أعلاه، هناك صورة أخرى تتلازم مع فكرة جهنم، وهي صورة النار والاحتراق. جذورها أيضًا تعود إلى العهد القديم. النبي أشعياء في ٦٦:٢٤ يصوّر وادي ابن هِنّوم مكان نار لا تُطفأ بعد أن كانت تُمارَس فيه تقدِمة الأولاد ذبائح. في معظم الكتاب المقدّس صورة الدينونة متلازمة مع النار. حرق الحيوانات في نظام الذبائح يُنتج «رائحة سرور للرب» (لا ٣:٥؛ ٤:٣١)، أما هنا فالحرق يدمّر شيئًا معاديًا لقداسة الله والدخان علامة على أن المعادي قد دُمِّر بالفعل. في سفر التثنية (٢٩:٢٣و٢٤) سوف تصبح أرض إسرائيل أرضًا محروقة نتيجة تجاوزها شرائع الرب. كما انه غالبًا ما يوصف غضب الله ضد الأشخاص أو الأمم بتعبير ناري: «فحميَ غضب الله» (خر ٤:١٤، عدد ١١:١-٣ الخ). النبي ملاخي يصف يوم مجيء الرب، يوم الدينونة، بـ«نار الممحِّص» و«التنور» (٣:٢و٤:١).

هذه المواضيع تتكرر في العهد الجديد. فالرب يسوع يتحدث عن «نار جهنم» «وأتون النار الأبدية» (متى ٥:٢٢، ١٨:٩، ١٣:٤٢). وسفر الرؤيا يصف العقاب الأخير «ببحيرة نار» (رؤ ٢٠:١٤-١٥). عبر استعمال صورة النار في الدينونة، يشدد الكتاب المقدّس على ان الدينونة كارثية وانها ترضي متطلبات قداسة الله «لأن إلهنا نار آكلة» (عب١٢:٢٩).

الحرق بالنار يحمل في طياته صورة العذاب الجسدي الذي سيمر به الخاضعون للدينونة. سفر الرؤيا (١٤:١٠) يحذر ان كل من يسجد «للوحش» ولصورته ويقبل سمته على جبهته، سوف «يُعذَّب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف». هذه الصورة تتوافق مع نظرة العهد الجديد العامة على ان جهنم هي العقاب على شكل عذاب للنفس والجسد معًا (متى ١٠:٢٨). الرب يسوع في مَثَل الغني ولعازر يصوّر الغني الميت في الهاوية معذَّبًا «في هذا اللهيب» (لو ١٦:٢٣و٢٤). عظيمة هي عذابات الذين يكونون في جهنم حيث يكونون في «بكاء وصرير اسنان» (متى ١٣:٤٢،٥٠؛ ٢٢:١٣).

يوصف العذاب في العهد الجديد على انه مستمر وأبدي (متى ٣:١٢، ٢تسا١:٩)، وقد عبّر الرب يسوع المسيح عنه بوضوح بكلمات النبي أشعياء: «حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ» (مر ٩:٤٨). والإنجيلي يوحنا يقول في سفر الرؤيا: «ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين ولا تكون راحة نهارًا وليلاً للذين يسجدون للوحش ولصورته ولكل من يقبل سمة اسمه» (١٤:١١). هذه الصورة تقابلها صورة البَركة للذين يخدمون الله «نهارًا وليلاً في هيكله» (رؤ ٧: ١٥).

تُعطي جهنم أيضًا صورة الظلمة. الرسول بطرس يقول ان الذين ضلّوا الطريق المستقيم وعملوا الإثم، هؤلاء «قد حُفِظَ لهم قَتام الظلام إلى الأبد» (٢بط ٢: ١٧). الرب يسوع يتحدث عن هؤلاء الذين سيُطرحون «إلى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ٨:١٢). والظلمة في سفر التكوين (١:٢) تشير إلى حالة الفوضى قبل ان يرتب الله الخلائق كلها والأرض والسماء. الخلق بدأ بخروج النور من الظلمة بأمر الله. من يتواجد في الظلمة مغلق عليه خارج حضور الله وخليقته الحسنة.

«فأتت وسجدت له قائلة: يا ربّ أغثني. فأجاب قائلاً ليس حسنًا أن يؤخذَ خبز البنين ويُلقى للكلاب. فقالت نعم يا رب. فإن الكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أربابها» (متى١٥:٢٥-٢٦-٢٧).

طالما كانت بعيدة، كانت تطلب رحمة السيّد ولكن عندما لم تحصل على شيء ولم تستطع أن تجعله يميل نحوها اقتربت منه وسجدت له، وأخذت تطلب من جديد عونه. وعند ذلك زجرها الربّ بطريقة مُهينة. ولكن تلك النفس الجريئة التي كلُّها رجولةٌ بالحقيقة، لم تيأس. رُذلت وسمعته ينعتها ليس فقط بالحيوان غير الناطق بل لعين ووحشي، وكأن صوتها ليس صوتُ بشر جدير بالسمع. مع كل هذا وافقت على كلامه «نعم يا ربّ» وذلّلت نفسها أمامه ولكنها لم تتوقف عن التوسّل إلى المسيح.

لنتعلّم من هذه المرأة المعلِّمة كيف يجب علينا أن نثابر في الصلوات، بأي صبر، بأي تواضع، بأي تخشع. لنتعلّم أن لا نتراجع حتى وإن كنا غير مستحقين، حتى وإن اتُهمنا بالدنس بسبب خطايانا، بل أن نداوم التوسّل من كل قلبنا وبتواضع وسوف ننال طلبتنا من الله.

القديس غريغوريوس بالاماس